ارتسامات حول اللغة العربية وفعاليتها في الحقل العلمي

للدكتور المهدي بن عبود

ليست المسألة لغوية وانما هي مسألة نفسانية تتصل بنظرتنا الى وجودنا وكياننا وعقيدتنا وفلسفتنا في الحياة وايماننا بنفسنا وتحقيقنا للرسالة الملقاة على كاهل البشر الاحرار في موكب الحضارة العام السائر الى تحقيق حكمة الهية في الوجود ، وهو تغلب الحق بعد اظهاره على الباطل ، وفوز النور على ظلمات الجهل المركب في النفوس المنحرفة ، والتقريب بين المرء ونفسه وبين الفرد والكل ... ولا لكانت قضية اللغة قضية تافهة لا تستحق هذا الوقت ، وهذا المجهود المكرس لها ، انه لمن اليسير أن تتغلب أي لغة كانت على الصعوبات اللفظية للحصول على مسميات ، مثل الآلات الميكانيكية والمواد الكيميائية والظواهر الفيزيائية والتعابير النظرية ولكن من الصعب جدا أن تقنع رجلا غافلا أن يهب من غفلته ويربح وقتا ثمينا يضيع سدى ويدافع عموما عن لغة كتب لها أن تكون لغة حضارة ، ولغة رسالة عظيمة ، وثقافة معينة بها يزدهر التراث الإنساني ، كما فعل في الماضي في تكوينها التاريخي على أسس الثقافات العظيمة ، والحضارة العميقة المدلول

[illegible]

ترثها الاجيال اللاحقة عن الاجيال السابقة ، وبما أن الزمان ليس الا صورة ذهنية لا وجود لها في الواقع ، فان القديم والحديث ليسا سوى مرآة لقيمة الانسان فردا كان أو مجتمعا .

عصر النهضة عبارة عن حالة نور اجتماعية يرتقي اليها الانسان ، وعصور الانحطاط ما هي الا حالة الانتقال ، كصراع طويل ، أنكى ما فيه هو سوء التفاهم بين الناس .

وهذه النظرة الى التاريخ صادقة على الحياة البشرية جملة وتفصيلا ، اذ أن الوعي يشمل الامة في العادات والمعتقدات والصناعات ، والانحطاط أيضا يظهر جليا فيها على صورة الاحوال والاقوال والافعال والمظاهر ومن بينها اللغة .

ولا أدل على هذا من تقدم اللغة أو تأخرها لانها صورة للعقل والنفس ، فلما تقدم العرب تقدمت معهم لغتهم حتى صارت منتشرة الاستعمال في العالم الشرقي والغربي خصوصا في ميدان العلوم والتجارة ، ولما تأخروا وقف تطورها لكن من حسن حظها وحظ العرب أنها كانت سابقة لغة حضارة خلفت لنا تراثا لغويا عظيما ، فلما وصل العالم العربي الى درجة التخلف الذي تركهم فيه الاضمحلال كانت الشعوب العربية أحط مستوى من لغتهم المحفوظة في الذخائر العلمية والادبية والفقهية وخصوصا في القرآن الكريم الذي

جعـــل منها لغـــة سمو عقلي وروحي لا يعـــادله أي انتـــاج بشري .

ليست هذه المسالة لافي الميدان العلمي ولافي غيره مسالة لغة في واقع الامر وانما هي قضية أم عليهـا أن تنهض بنفسها ، وتستعمل التراثالمدفون بين أيديها وتضيف اليها ما يتطلبه تطور كل لغـــة عربية كـــانت أو غير عربية فانه لا يوجد على وجه الارض لغة لا تتطور مـــع شعوبها على مر الزمان .

ولكن نظرا للعوامل المختلفة التي تؤثر على حيـــاة اللغات فان الاتهامات التي تلحق لغـــة الضاد هي في الحقيقة كما سنراه في غير مجلها وينبغي بالاحرى أن توجه الى الجهلاء من أبنائها .

وليس هذا الموضوع المقترح من طرف المكتب الدائم لمؤتمر التعريب بالبحث الهين الواضـــح الجوانب ، لا ولا هو في مأمن من الجدال الطويل ، فالخاص والعام على خبرة من تداوله على رؤوس الالسنة والخوض فيه في المجامـع العلميـــة والدوائر المدرسية ، والهيئات السياسية ، منذ انبثاق الوعي في العالم العربي وقيام النضال ضد الاحتلال الاجنبي ، وخصوصا الاحتـــلال الفكـــري .

وليست هذه اول مرة نسمع باللغة العربية تشتكي من خصومها الاجانب الذين لا زال جيشهـم الثقافـي يوطد الاحتلال المعنوي حسب الستراتيجية القديمة من عهد بداية الاستعمار والمبنية ء لىقتل الشخصية العربية الاسلامية بمحاربة اللغة ومحاربة الكتاب الحافظ لهـا وهو القرآن ، وذلك لغزو الافكار تسهيلا للاستغـــلال الاقتصادي واستعباد العقول ، وليست هذه أول مرة نشاهد فيها التنكيل باللغة العربية حتى مـــن طـرف أبنائها أنفسهم مبرزين بذلك آمال الاستعمار من جهـة ومخاوف الامة على الثقافة الاصيلة والحضارة العـربية التي بحمد الله استطاعت وحدها ، وبفضل تعـــاليم الاسلام الثابتة أن تميز بين الاحرار والعبيد والسيـد والمسود ، وليست هذه أول مرة نسمع بعض المثقفين بلغة أجنبية شبـوا عليهـــا حسب تخطيط الاستعمار وجهلوا بذلك لغتهم جهلا يكاد يكون كامـــلا يصدرون حكما قاسيا وزعما جائرا على عجز لغتهم عن أداء رسالتها العلمية وحتى غـــير العلمية فيقعون في خطـــأ مركب مزدوج خطأ من يحكـــم على الشيء وهـــو لا يتصوره لجهله به وخطأ من يصدر حكما في حـــد ذاته حكما خاطئا سواء كان له علم بالموضوع ، او لم يكن وذلـك أيضا من اثر نفوذ الاجنبي على العقول .

وأخيرا ليست هذه أول مرة نرى الاحرار من العرب يشمرون عن سواعدهم ويحاولون جمـــع شتات الافكار بهذا الصدد ويطرحون على بساط البحث مسالة اللغـة بالنسبة لحياة المجتمع كوسيلة من وسائـــل النهضة العامة لمسايرة الزمان والتطور ، وللمحافظة على شخصية الامة وكيانها وعبقريتهـــا واستمرار رسالتها وتـواتر حضارتها واتساع ثقافتها حتى لا تذوب الامة ومآثرها في شخصية الغالب وتصبح مـــن الاتباع المغلوبـــين عليهم اقتصاديا ومعنويا .

ولكن هذه أول مرة تنتصب الامة العربية كرجـــل واحد تجمع شملها وتوحد جهودها مـــن أقصى الشرق الى أقصى الغرب مومنة بأن قيمة اللغـه صورة لقيمـة الامة وان حياة اللغة تابعة لوعي الفكر في المجتمـــع وان موتها نتيجة لموت الامـــة كشخصيـة معينة ذات رسالة في الوجود بفضل استقلال العقول منبع حريـة الافراد غير ان هذه النهضة العـــامة التي تبـرز أيضا في ميدان اللغـة لا زالت تلـــوح عليها بعض عـلامات التشكك وضعف الثقة بنفسها في بعض الاحيـان وفي بعض الدوائر ، لا سيما بعض الحركات السياسية منها بوجه أخص ، ومن جملة تلك الاعراض ، التساؤل عمـا اذا كانت اللغة العربية ذات فعالية في الحقل العلمي ، وهل هي صالحة لاداء رسالتها فيه والقيـام بالوظيفة المنتظرة منهـــا في مختلف العلوم والصناعات ، ومـا يتجدد من نظريات فيزيائية وكميائية وطبيعية ونفسية وطبية واجتماعية الى غير ذلك مـــن أنـــواع المعرفـة والتطبيق الداخلة ضمن مدلول كلمة العلـوم بالمعنى الحـديث ؟؟

فموضوع فعالية اللغة في الحقل العلمي مسالة ذات وجهين : وجه مبدئي ووجه علمي .

I الوجه المبدئي معناه هل اللغة العربية قادرة كلغة متمدنة على أن تكون لغـة علـــوم بالمعنى العصري ؟ فالجواب بسيط وهو أن السؤال هذا ينبغي أن يـوجه للامة لا للغة ، لما كانت اللغة العربية لغة أمـــة ذات رسالة حضارة إستطاعت أن تقـوم بوظيفتها في سائر الميادين العلمية والطبية وغيرها مثلما نراه في شخص

أكابر العلماء كالبيرونى وابن الهيثم وابن سينا وغيرهم حتى تتلمذ العالم اذ ذاك عليهم ، ولما انهارت الى المستوى الذى تبع تلك العصور الذهبية انحط كذلك قدر اللغة فى نفوس الاعداء والخصوم وأصبح القصور الفكرى وضعف الشخصية الاجتماعية هو مسألة المسائل وصارت اللغة سجينة نطاق ضيق فى استعمالها الادبى والفقهى والتاريخى وفى بعض العلوم كالحساب البسيط والنجوم وعلم جرا ، كما عهدناه فى العصور المتأخرة فى بلادنا .

ففى أيام النهضة والازدهار ترتفع اللغة الى مستوى يوازى رقى الامة وغزارة الفكر والعلوم فيها ، وتكون لسان حال تلك النهضة اذ تبرز كصورة صادقة للدرجة العظيمة التى ارتقت اليها الجماعة فى سلم الحضارة ، فتكون اللغة فى نفس الوقت منبع الافكار ، وترجمان المعرفة ، وسجل الانتاج الثقافى ، وتكون ايضا نتيجة لتلك الافكار ، وتلك الحركة الخصبة الدالة على الحيوية الفكرية للامة وعلى ابتكار القرائح الخلاقة .

وبما أن النهضة يمكن أن تعتبر كائنا حيا ذا وحدة لا تتجزأ فانها عندما تظهر فى عصورها جلية ، فان ذلك يكون فى سائر مرافق الحياة وجزئياتها : تظهر فى الروح الجبارة القادرة على الخلق والابتكار والاستقامة والتضحية والعدل واحترام القانون والشورى وحسن التدبير والنظافة والتعمير ، وازدهار العلوم والصناعات واستقلال النفس ومهابة الدولة والتأثير فى الغير ... الخ ...

واذ ذاك تكون قيمة اللغة وقدرتها او فعاليتها كقيمة الامة ومسيريها سواء بسواء ، فالقول المأثور عن الامام على كرم الله وجهه : «ان المرء مخبوء تحت لسانه» يمكننا أن نطبقه على الامم والحضارات كذلك ، وهذا بالضبط ما وقع للغة العربية فى عصر الازدهار العربى .

جاء فى كتاب (أثر العرب فى الحضارة الاوربية) لعباس محمود العقاد ما يلى : « ... كان شيوع التعليم بالعربية سببا لاهمال اللاتينية والاغريقية وخطوة لابد منها لاحياء اللغات الشعبية وتداول الشعر والبلاغة والعلوم من طريق غير طريق القسوس والرهبان المنقطعين للمباحث الدينية . ويروى لنا دوزى فى كتابه عن (الاسلام الاندلسى) رسالة ذلك الكاتب الاسبانى ـ القارو ـ الذى كان يأسى أشد الاسى لاهمال لغة اللاتين والاغريق والاقبال على لغة المسلمين فيقول (ان أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الادب العربى فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها ، وساء ذلك معاصرا كان على نصيب من النخوة الوطنية أوفى من نصيب معاصريه فأسف لذلك مر الاسف وكتب يقول : ان اخوانى المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لادحاضها والرد عليها بل لاقتباس الاسلوب العربى الفصيح) . فأين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والانجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الاناجيل وصحف الرسل والانبياء ؟

وا أسفاه . ان الجيل الناشىء من المسيحيين الاذكياء لا يحسنون أدبا او لغة غير الادب العربى واللغة العربية ، وانهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الاثمان ، ويترنمون فى كل مكان بالثناء على الذخائر العربية فى حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون من الاصغاء اليها محتجين بأنها شىء لا يستحق منهم مؤونة الالتفات .

فيا للاسى . ان المسيحيين قد نسوا لغتهم فلن تجد فيهم اليوم واحدا فى كل ألف يكتب بها خطابا الى صديق . أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ، وقد ينظمون بها شعرا يفوق شعر العرب انفسهم فى الاناقة وصحة الاداء ...)

انتهى كلامه .

نرى من هذا الوصف الذى لو طبق فى أيامنا هذه على ظروفنا وأبدلنا فى هذا النص اللغة العربية باللغة الفرنسية والبلاد الاسبانية بالبلاد العربية كان صادق المدلول كامل المطابقة حيث التاريخ يعيد نفسه .

ونرى ايضا من هذا أنه ليست حالتنا الحاضرة حيث يتهافت الجيل الفتى على لغة الغالب وينظر الى لغته بعين الاهمال والتنقيص هى الحالة الاولى من نوعها فى التاريخ ، بل نستخلص مما سبق أن التاريخ يفيدنا ببعض القواعد كدروس لا بد ان نستفيد منها ونعتبر بها كأثمن عبرة فى حياتنا :

1) الاولى هى أن الروح البشرية لا تتجزأ ، فخصائص رقيها او إنحطاطها وخذلانها يتجلى دفعة واحدة فى سائر مظاهر الحياة وخصوصا فى اللغة كما سبق لنا الكلام عنه .

2) الثانية ان اللغة العربية كانت ولا زالت لغة حضارة منذ قرون عديدة فلا يصدق عليها ما يقال عن اللغات البدائية مثل اللهجات الافريقية أو بعض اللهجات الاسيوية المختلفة أو غيرها . فهى لغة رسالة سماوية ولسان حضارة بفضلها قامت القارة الاوربية من غفوتها ، وهى احدى اللغات التى تناط بها وتسمو بها الثقافات الكبرى مثل الانجليزية للثقافة الانجلوسكسونية واللغات اللاتينية للثقافة اللاتينية وهلم جرا ، فالعربية هى لغة الثقافة العربية الاسلامية وعقلية الامة الاسلامية فى سائر القارات لا سيما فى الوطن العربى حيث قام الدليل علاوة على ذلك فى سوريا مثلا على أن اللغة حية يجرى بها العمل فى سائر فروع التعليم والادارة والعمليات العامة .

3) الثالثة ان اللغة روح ووعاء للحضارة فمن أراد أن يرتقى سلم الرقى لا بد له أن يحافظ على لغته فى الآداب والفنون والعلوم على السواء لان اللغة واحدة والازدواج شىء سطحى ومؤقت واصطناعى لا أساس له فى التاريخ ولا فى النفوس عند مجموع الامة .

فاللغة وعاء للحضارة والشخصية وهى كبطاقة تعريف للثقافة وللامة بحضارتها وثقافتها فاذا غلبت عليها لغة أخرى ذابت شخصية الامة وذهبت ريحها . وهى كروح أهم من كونها وعاء للحضارة او وسيلة تعبير .

فانها ما سميت باللسان تقريبا عند كثير من الامم الا لانها ترجمان العبقرية الخاصة بالامة وبمشاعرها ونظرتها للوجود وهوية نفسها وقيمة الهيكل الاجتماعى بأكمله .

ثم انها كروح هى اجلى وافصح صورة لبشرية الامة بلطفها وصفائها ونورها حسب مفردات عمر ابن الفارض التى تتميز بها روحانية الاجيال سابقها ولاحقها ، فعبقرية الامة وروحانيتها سر يكشف على الدوام لزخارة الحقائق ومرونتها ورقيق معانيها ولطفها وتجديد مفاهيمها المستمر فى ابتكار متواصل وتطور خلاق وحركة لا تنقطع عن طريق الادب والفلسفة .. الخ ...

كل هذا كامن فى النفس لا ينقب عنه الا ساعد اللغة الاصيلة التى تكون وحدها قادرة على التبليغ بأمانة ونفوذ وتوافق مع المعنى .

ولهذا نرى الناس يدافعون عن لغتهم بنور بصيرة اذا كانوا من زمرة المتبصرين بادراكهم لعظمة الدور الذى تلعبه اللغة فى هذا المضمار .

فهم يحنون اليها لانها تتكلم وتختلج مع نفوسهم وأفئدتهم وأرواحهم وبفضلها يلمسون الوجود ذوقا وادراكا .

فاللغة الاصلية نقطة وصل بين الانسان والوجود أصدق وأتم من أى لغة أجنبية دخيلة التى تفيد طبعا علميا وعمليا ولكن لا تصلح الا لربط العلاقات لا كصلة روح بروح ، ومن جهة أخرى يقول كالينين أحد رؤساء الجمهورية السابقين فى الاتحاد السوفياتى فى كتابه المسمى (حول التربية الشيوعية) متوجها الى التلاميذ فى الصف التاسع والعاشر : (يجب قبل كل شىء أن تتقنوا معرفتكم للروسية . اننى ارى أن معرفة اللغة الروسية عامل مهم لتطور الانسان العام وذلك لان جميع العلوم التى تستطيعون أن تدرسوها ، ولا سيما اذا دخلتم فى المعاهد غير التكنيكية ، وجميع نواحى النشاط الاجتماعى تتطلب معرفة جيدة للروسية ..

ان دراسة اللغة القومية الاصيلة مهمة جدا وان أسمى منجزات الفكر البشرى وأعمق الافكار وأشد العواطف ستبقى مجهولة اذا لم يعبر عنها تعبيرا واضحا مضبوطا بالكلمات ...) انتهى كلامه .

فهو يوصى أطفال الاتحاد السوفياتى بثلاثة أشياء :

1) قبل كل شىء اتقان اللغة القومية الاصيلة .

2) ثم الرياضيات . 3) ثم الرياضة البدنية ، وهو يعلم أن اللغة القومية هى الوسيلة الحية غير الدخيلة لجعل الافكار والمشاعر مفرغة فى قالب صادق واضح .

4) والفائدة الرابعة التى نجنيها من عبر التاريخ هى تنازع البقاء بين اللغات . كلما احتلت أمة أرض أمة أخرى يسعى الغالب فى تقويض كيان المغلوب وتحطيم شخصيته تحطيما يفنى معه وجود المغلوب فيصبح عبدا منصاعا لسيده الظافر الذى يفرض تدبيره ولغته ونظرته للكون .

ولا يألو الغالب جهـــدا لا فـــى الحسيـــات ولا فى المعنويات حتى يستولى عليها كلية .

ففيما يتعلق ببلادنا ، جاء المستعمر فحاول أن يمحو أثر اللغة والدين ، لارغام الناس على نسيان شخصيـــة قومهم واندماجهم فى شخصية الغالب ، فقر رأيـــه على تكسير وحدة البلاد بهدم الدين الذى لا يتـــم هدمه الا بمحاربة القرآن ، وذلك كـــان هـــو السبب الاساسى للسياسة البربرية التى ما زال الى يومنا هذا يطمع فى نجاحها من وراء الستار .

فاستولى على التعليم بعد أن نشر نفـــوذه السياسى والعسكرى على البلاد ، وحارب اللغـــة العربية بنفس الروح التى تأصلت من الحروب الصليبية التى افتضح وجودها لما أجاب وزير الخارجية الفرنسى السابـــق جورج بيدو وبعد أن سئل لما نفى الملك محمد الخامس بقوله : (لن أسمح للهلال أن يتغلب على الصليب) .

والغاية من ذلك هـــو استمرار الاستغلال الاقتصادى واحتلال المراكز الستراتيجية فى العالم ونشر النفوذ المعنوى واللغوى القـــاتل لشخصية المغلوب والمعبـــد لطريق القوة والتمتع المادى .

وهنا يتميز الرجل الحر ، عن العبد الراضى عـــن سيده الذى يدخل فى زمرة المسخرين الجبناء عمن كان له شعور بكرامته وباستقلال شخصيته وحـــرية روحه وقيمة عقله لا بد أن يثور على القاهر الجائر ويعـــاكس خططه ويحافظ على لغته التى ليست لقيطة مرتجلة بل لغة رسالة عظيمة فى الوجود الكونى .

وبهذا الصدد يقول الحافظ ابـــن حزم فى كتـــابه (الاحكام فى أصـــول الاحكام) : «ان اللغـــة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخـــول غيرهـــم عليهم فى مساكنهم او بنقلهم عن ديارهـــم واختلاطهم بغيرهم ، فانما يقيد لغة الامة وعلومها وأخبارها قـــوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم . واما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهـــم واخبارهم وبيود لغتهم ، هذا موجود بالمشاهدة ومعلـــوم بالعقل ضرورة» انتهى كلامه .

كل ما مر بنا يكفى لاقناعنا ان الناحية المبدئية من مسألة اللغة تتلخص فى كلمـــة واحدة : الارادة . فاللغة كسائر العوامل الاجتماعية يعادل وزنها وقيمتها وزن الامة وقيمتها فى حظيرة الامم . فان اللغة العربية لا تحتاج الا لشىء واحد لا فى العلـــوم ولا فى الفلسفة ولا فى الآداب وهذا الشىء الواحد هو الاستعمال فهى موجودة لكن الامة معنويا مفقودة ، اذا صح هذا التعبير التقـــريبى .

فالاعتزاز باللغة دليل على عمق الفكر وبعد النظر ، ومعرفة حكمة التاريخ ، وصدق النية وروح الغـــيرة ورفض الاستعباد والذل والشعور باستقلال الشخصية وجمال اللغة الاصيلة وسهولة متناولها على النشء مثلما فعل اليابان والصين وروسيا واليونان وشعوب أوربا الوسطى وحتى ما يسمى اليوم باسرائيل حيث الاعتزاز بالنفس والدفاع عن الشخصية التى يرغب فى تكوينها الصهيونيون فيدفعهم الى احياء لغة ميتة من قبرها وهـــم يستعملونها فى كل عمل من اعمال الحياة فى الشؤون اليومية والانتاج الفكرى والعلـــوم التطبيقية والتدريس فى الجامعات رغم كونهم أقلية ضئيلة لا زال أكثرهـــم مقطعين فى الارض ، كل هذا بفضل ارادة اصحابها .

واليابانية رغم صعوبتها وانحصارها ضمن حـــدود بلادها لا غير صارت مع مر الزمان وقطع مراحل التطور الى ما صارت اليه اليوم لغة شعب بلـــغ من التقـــدم والرقى ما جعله يزاحم سائر الدول الصناعية الكبـــرى بل واصبح من ناحية التدبير والعمران مرجعا من اثمن المراجع يقلده الامريكان وغيرهـــم فى بعض الميادين خصوصا فى التعمير وأساليب التجارة .. الخ .. هذا من الناحية المبدئية .

2) اما الناحية العملية فانهـــا ترتكز ـ اذا امعنـــا النظر ـ كلها على الناحية المبدئية ، لان اللغة العربيـــة لا تحتاج أول الامر وآخره الا الى شىء واحد كما سلف وهو ايمان أبنائها بها وتشبعهـــم بروح الحـــرية التى لا غبار عليها ولا نفاق فيها حتى يعتزوا بشخصيتهـــم بواسطتها ويحافظوا بفضلها على معنـــويتهم وثقافتهـــم وخصوصا برسالة الحياة التى تضمنها القرآن الكريـــم وعبر عنها ببيان اللغة العربية وعبقريتها .

فالايمان بها يرجع فى الواقع الى الايمان بالنفس ، وهنا يتميز الاحرار من العبيد كما وجدنا هـــذا المعنى جليا عبر التاريخ .

وهذا الايمان بدوره يخلق ارادة قوية لإستعمال اللغة في العقل العلمي والعملي على السواء من ارادة ومعاملات كما هو الحال في ليبيا مثلا في المغرب العربي ومنها الى سائر الدول العربية خصوصا سوريا حيث وصل التعريب الى درجة أقامت برهانا على مدى فعالية الارادة والعزم وروح الشرف .

بل لم يضع هذا المجهود العربي وانما جاء رصيدا ثمينا ساعدت على الاحتفاظ به الذخائر الدفينة في التراث القديم من طب وكيمياء وفيزياء ورياضيات وما أضيف الى هذا التراث القديم .

فاللغة العربية لغة حضارة عريقة كانت ولا زالت حية يسهل استعمالها بفضل استمرار العمل بها لانه كما يقول بعض المفكرين : « ان افضل وسيلة لتعلم الضرب على العود هو الضرب على العود نفسه .»

الاستعمال يكشف عن قدرة اللغة وعن حيويتها وغزارة ثروتها المجهولة ، إننا نرى اللغات الاوربية العالمية مثل الانجليزية والفرنسية موضوع اعتناء أبنائهما بهما بكيفية لا تنقطع لا يعرقلها توان ولا هوادة ولا كبرياء بل ان الاصطلاح العلمي في اللغات الغربية كله مستعار تقريبا من اللاتينية واليونانية وبعض اللغات الاخرى ومنها العربية التي لا ينبغي أن يعتبرها الجهلاء محض لهجة ضعيفة .

فلا بد من الاقتباس عندما تدعو الضرورة اليه في الحقل العلمي أما بالتعريب وهو افراغ اللفظ الاجنبي في قالب عربي واما بأخذ الكلمات على ما هي عليه في الاصل وهذا ما قد جرى به العمل وأصبح عاديا في الدول العربية .

ثم ان وفرة المعاجم والكتب المتوفرة الآن في الحقل العلمي والمستعملة في بعض الجامعات العربية لدليل على خصوبة اللغة وقدرتها على أداء رسالة وعلى استعدادها للتطور والتكيف وقبول الاقتباس والاضافة ومسايرة الحركة العلمية العالمية .

وهذه المجهودات في التأليف والترجمة مبادرة مباركة تشجع على مواصلة الاجتهاد والكد والمثابرة . وطبعا لا ينبغي لهذه المجهودات أن تبقى حبرا على ورق كخرافات التسعينية ولكن من الواجب أن يجرى بها العمل في التدريس الجامعي .

وكل ثورة من أجل الحرية لا تتم الا اذا ما استأصلت الداء الاستعماري من جذوره الفكرية واللغوية والقضاء على السم في مكامنه الدساسة من وراء الستار بواسطة البعثات والمستشارين وهم ثعابين موظفة ، يهيئون العقول لاعتناق فكرة ضرورة اللغات الاجنبية في الميدان العلمي وعدم صلاحية اللغة العربية التي يضمرون لها كلغة العروبة والدين ما قد صرح به قريبا أحفاد الحروب الصليبية ، فدعاة الازدواج هم في الواقع يساعدون على سياسة الاستعمار الجديد اما عن علم واما عن جهل ، وغفلة ، والنتيجة واحدة مع الاسف ، فمن المستعجل أن يتم تعلم اللغة واتقانها عن طريق استعمالها اذا اقتصر على تدريس نصفها الادبي والكلامي العادي وارغام الناس كرها على اقتناء العلوم بلغة أجنبية ، فان المآل هو طمس القرائح والجرى على عكس مجرى التاريخ .

تصور طفلا ذكيا أهلته طبيعته الى الادب والانتاج فيه ، فانه لا محالة يجد لغته مشلولة عرجاء ناقصة تعوزها الالفاظ والتراكيب العلمية والتكوين الفكري العلمي لاستعمال هذا القسم العلمي من اللغة ، ونحن نرى من الآن الصبيان في البيت ينطقون بجملة عربية ويدخلون فيها الفاظ الحساب والعلوم بالفرنسية وذلك في أبسط المحادثات اليومية .

وتصور طفلا آخر أهلته طبيعته الى التفوق في العلوم، وأراد أن ينتج فيها ويكتب أو يعد محاضرة علمية للعموم بلغته العربية فانه يجد نفسه عاجزا عن ذلك متألما مجروح النفس كما يعبر عنه بكل صراحة بعض الناس في نوع من الجد والصدق والعمق .

وخلاصة القول ان مسألة اللغة في الحقل العلمي هي مسألة اللغة كلغة بتمام حذافرها وحياتها ، بجانب هذا ان وجوب تعلم اللغات الاجنبية شيء لا جدال فيه وهذا موضوع آخر فقد قيل كل لسان بانسان وان التقدم والتفاهم الدولي لا يتأتى الا باتقان اللغات الاجنبية المهمة ، هذا شيء مفروغ منه ، ان ما يهمنا هو ضرورة استعمال اللغة الاصيلة .

فقد أقام القدماء البرهان على كون اللغة العربية كما أسلفنا قادرة لا على أن تكون لغة علوم مثلما نراه في أمهات الكتب الهندسية والطبية والجغرافية والفلسفية في عصور الازدهار فحسب وانما هي قادرة على أن

تكون لغة عالمية من جملة لغات الحضارة أيضا .

هى كلسان عربى نزل به القرآن مضمونة المستقبل رغم كيد الجهلاء ، فلقد تولى الله سبحانه حفظ القرآن وبواسطته حفظ اللغة العربية ولو كره الغافلون . وهى بفضل القرآن لغة رسالة حضارية ثقافية وصل وقتها وحان من جديد عصر ازدهارها نظرا لتطور التاريخ الى ترجيح كفة التعارف المعنوى بين الشعوب على كفة الاستغلال الاقتصادى .

ليست اللغة الا لسان العقل الحى ينشد الحقيقة والنور ، وهذا اللسان يقارن انتاج القرائح فى العالم مع ما ينتجه أبناء اللغة الاصيلة ليتم سير التاريخ الى نشر النور والحق فى الدنيا .

فالامر جسيم والمهمة جليلة وواجب العقول المستنيرة هو الارتقاء الى هذا المستوى الرفيع الذى تمثله عبقرية اللغة الاصيلة .

سلا : الدكتور المهدى بن عبود